الموحد ٣

WWW.ATTAWEEL.COM

أسعد الحكيم محمد

مواد البيان

لعلي بن خلف الكاتب

المتوفى بعد سنة ٣٤٧ هـ

تحقيق

د . حاتم صالح الضامن

كلية الاداب / جامعة بغداد

القسم الثالث

الباب الثالث

في أقسام البلاغة الفرعية

وإذْ كُنّا قد استوفينا القولَ على أقسام البلاغة الأصلية الحالّة منها محلَّ الأركان والقواعد والأساس والأروم ، فلنأخذ الآن في القول على أقسامها الفرعيةِ الواقعةِ منها موقعَ الأعضاء والأجزاء والأفنان والأغصان ، وهي عشرةُ أقسامٍ :

الايجاز والاستعارة والتشبيه والبيان والنظم والترتيب والتلاوم والتصرّف والمشاكلة والمثل .

ولنقدم قبل الأخذ في هذه الفنون القولَ على الحقيقة والمجاز والفرقَ بينهما والوَجْهَ في استعمالهما لحاجة الكاتب الى العلم بهما في تصريف الكلام واختراع الاستعارات إنْ شاءَ الله تعالى .

قول في الحقيقة والمجاز :[1]

لَمّا كانتِ العبارةُ هي الدلالةُ التي يُتوصَّلُ بها الى الإفهام ، وكانَ لاسبيل الى إيصال المعنى المحمول عليها الى الفهم إلّا بأنْ تكونَ مُبَيّنة على التحقيق دون التوسع ، احتيجَ الى معرفة الفرقان بين الحقيقة والمجاز ، لئلا يُطلقُ القولُ مجازاً على معنى فيظنّ سامِعُهُ أنّهُ حقيقةٌ ذلك المعنى .

WWW.ATTAWEEL.COM

فالحقيقةُ : هي القولُ الدالُ لصيغةِ اللفظ الذي لم يُغَيَّر عن أصله المستغنى في الابانة عن وسيطه من مراجعةِ شيءٍ يكونُ أصلاً لذلك اللفظ ، وهي على ضربين : أصليّة وفرعيّة .

فالأصليةُ : هي التي لن تغيّر العبارة فيها عن أصلها ، كقولك : الله العادِلُ .

والفرعيةُ : هي التي تقلب الى أصلٍ ثانٍ يحلُ منها محلُ الأوّلِ في الابانة عن المعنى من غير تقدير الأصل ، كقولك : الله العدْلُ[1] . وذلكَ أنَّ العَدْلَ يصدرُ ولكنّه كثرَ فظهرَ معناه كظهور معنى الأوصاف وصارَ (١١٤) دالاً من غير تقدير الأصل كما تدلّ الحقيقة الأصلية .

وأمّا المجازُ فهو القولُ المعّبرُ عن أصله الدالّ بتقدير الأصل المفتقر في الابانة الى وسيطٍ (من) مراجعةِ شيءٍ يكونُ أصلاً لذلك اللفظ ، وهو كقوله تعالى : «وَسْئَلِ القرية»[2] لأنّه يدلُ متى قُدِّرَ أصله يرجع إليه ، وهو : واسأل أهل القرية .

ولكلُ مجازٍ حقيقةٌ وهي ذكرُ الأصلِ ، وجميعُهُ مُغَيَّرٌ عن أصله ، وأصله حقيقةَ المرجوع .

وأكثر مايقعُ المجازُ في الحذف والاستعارة والتقديم والتأخير توسعاً في اللغة .

والفرقُ بين الحقيقة والمجاز أنّ المجاز إنّما يظهرُ معناه بردّه الى أصله ، والحقيقةُ معناها ظاهرٌ في لفظها لايحتاجُ أنْ يردُ الى غيره .

ولايخلو استعمال المجاز من أنْ يكونَ للبلاغة أو للتوسع في العبارة أو لإيضاح المعنى وتقريبه ، ولهذا يُعدلُ عن الحقيقة إليه .

ومن المجاز في كتاب الله تعالى قوله في الكافرِ :

«فأمُّهُ هاوية»[3] لمّا كانتِ الأمُّ كافلةَ الولدِ ، وكانتِ النارُ للكافر كذلكَ جعلها أُمّهُ .

وقوله في أزواجِ رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم :

«وأزواجُهُ أمهاتُهم»[4] أي كأنّهنّ أمهاتُهم في الحرُمات .

وقوله تعالى : «سنفرغُ لكم أيُّها الثقلان»[5] ومجازُهُ : سنقصد لكم بعدَ طولِ التركِ والإمهالِ ، لأنّ الله تعالى لايشغله شأنٌ عن شأنٍ .

ومن المجازِ في كلامِ الناسِ قولُ القائلِ : (سلِ الأرضَ من شَقَّ أنهارَكِ ، وغرسَ أشجارَكِ ، وجَنى ثمارَكِ ، فإنْ لم تجبكَ حواراً أجابتكَ اعتباراً) ، فاستعارَ لفظ (سل) وإنّما يريد : استَدِلّ واعتَبِرْ بالأرضِ ، (١١٥) وفيه حذفٌ أيضاً لأنّه أرادَ : فَقُلْ مَنْ شقَّ أنهارَك .

ومنه قولُ امرىء القيس[6] :

وليلٍ كموجِ البحرِ مُرْخٍ سُدُولَهُ ... عليَّ بأنواعِ الهمومِ ليبتلي

فقلتُ له لمّا تمطّى بصُلبِهِ ... وأردفَ أعجازاً ونآءَ بكَلْكَلِ

ألا أيُّها الليلُ الطويلُ ألا انْجلي ... بصُبْحٍ وما الإصباحُ فيكَ بأمْثَلِ

فاستعارَ ، السدولَ ، وهي الستور ، وتمطّى وأردف والكلكل ، وهو الصدر .

وخاطبَ الليلَ بالأمر على جهة استعارة اللفظِ ، والأصلُ في (مرخٍ سدولَهُ) متكاثف الظلمة . وفي (تمطّى بصلبه) امتدّ الوقت ، شبهه بالكلان الذي يتمطّى ولا يبرحُ في موضعه . وفي (أردف أعجازاً) أتى بظلمة بعد ظلمة . وفي (ناء بكلكل) تهيّأ أوله للذهاب ، شبّهَهُ بالبعير إذا نهضَ بصَدْرِهِ . وفي (ألا انجلي) ليتَ الليلَ انجلى بالصباح . ومنه قول الكُمَيْت[٨] :

اخبَرَتْ عن فعالهِ الأرضُ واستنطقَ منها اليَبابَ والمعمورا

أرادَ أنّه حفرَ فيها الأنهارَ وغرسَ الأشجارَ وأبّرَ الآبار ، فلمّا تبيّنَتْ للناظرِ صارتْ كأنّها مُخبرةٌ بذلك .

وقولَ عوف بن الخَرِع[٩] ، وذكرَ الدارَ :

وَقَفْتُ بها مايبينُ الكلامُ لسائِلِها القولَ إلّا سِرارا

يقولُ : ليست تبينُ الكلام لمخاطبها ، إلّا أنّ ظاهرَ ماترى دليلٌ على الحال ، فكأنّهُ سرارٌ من القول .

(١١٦) وقولُ الآخر[١٠] :

شكا إليَّ جملي طُولَ السُّرَى

والجملُ لم يشكُ ولكنّه خبّر عن كثرة أسفاره وإتعابِهِ جَمَلَهُ ، فقضى على الجمل بأنّه لو كانَ متكلماً لاشتكى مابِهِ .

ومثلُهُ قولُ عنترة[١١] ، وذكرَ فَرَسَهُ :

فازْوَرَّ من وَقْعِ القَنَا بلَبانِهِ وشكا إليَّ بَعْبَرةٍ وتَحَمْحُمِ

ليسَ للفرسِ شكوى ولا استعبار ، لكنّه لمّا كانَ الذي أصابه يُشكى منه ويُستعبَرُ جَعَلَهُ شاكياً مُسْتَعْبِراً ، ولهذا قالتِ الحُكماءُ : (كلُّ صامتٍ ناطِقٌ) . يريدون أنّ أثَرَ الصنعة يدلُّ على محدثه ومُدَبِّره .

ومنه قولُهُ تعالى : «فوجدا فيها جداراً يريدُ أنْ ينقضَّ»[١٢] .

ومثلُهُ قولُ الشاعر[١٣] :

إنْ تَعْرَأ يلفُ شَمْلي بسَلمى لَزَمانٌ يعمُّ بالإحسانِ

وقولُ الآخر[11] :

يريدُ الرمحُ صَدْرَ أبي براءٍ ويرغبُ عن دماءِ بني عُقَيْلِ

وأمثالُ هذا كثيرٌ .

وقد يجيء من المجاز مايشكل ، وهو المصادر ، كالتحرُّك والسكون والبقاء والوجود . وذلك أنّ هذه الأسماء موضوعة على تقدير أنّه إنْ كان للموصوف معنى لأجله صار على ماوُصِفَ به فالاسمُ له حقيقة ، وإنْ لم يكنْ له معنىً لأجله صار على ما يُوصفُ به فالاسمُ له مجازٌ . فلمّا كان التحرّك والسكون واقِعَيْنِ على معنىً كانَ الاسمُ (١١٧) لهما على الحقيقة إذْ هما على ما قُدِّرَ .

ولمّا كان البقاء والوجود لايقعان على معنىً لم يكنِ الاسمُ حقيقةً وكانَ مجازاً .

والأصلُ في وضعِ الجميعِ التشبيهُ بما يتيقن أنّه من أجلِ معنى ، كقولك : (والِدٌ) من أجل الولد ، و(موسِرٌ) من أجل اليَسَار ، وما أشبهه فهو على التقدير .

والأصل في التقدير كان معنى به صار بالبقاء باقياً كما صار الموسِرُ باليَسَار مُوسِراً . فأجرى المصدرَ الذي لا يتيقن على التقدير ، وجعلَ اللفظَ موقوفاً في الحقيقة والمجاز على مايُخرجه الاستنباط .

ولغموض هذا المعنى غلط قوم فجعلوا الحركة والسكون كالبقاء والوجود في أنهما أسماء لامُسمّى تحتها ، وإنّما تمّ ذلك عليهم لأنّهم راعوا المقايسةَ بالألفاظ دون الاستدلال والاعتبار .

ومن حُكم المجاز أنْ لاتقع عليه مقايسةٌ ، وذلك أنّه لوسألَ سائلٌ عن قوله تعالى : «فوجدا فيها جداراً يُريدُ أنْ ينقضَّ»[12] فقال : هذه الارادةُ من فِعْلِ مَنْ ؟ لأخطأ إذ المجازُ لايقعُ فيه قياسٌ وإنّما يُقاسُ بالحقيقة ، والمجازُ لايتصرَّفُ تصرُّفَ الحقيقة ولايطّرِدُ اطّرادها ، ألا ترى أنّهُ يُقالُ : إنّ الله تعالى بكُلِّ مكانٍ ، ولايُقالُ : إنّه في البيت ولا في السوق .

ومن المجاز مايَشْكلُ معناه حتى يفَسَّرَ بالحقيقة ، ومن ذلك قوله سُبحانه : «فأتى الله بُنيانَهم من القواعِدِ»[16] معناه : أتاهم ببأسه . وقوله : «ثُمَّ استوى على العَرْشِ»[17] أي استولى . وقوله : «استوى الى السماء»[18] أي قَصَدَ وعَمَدَ .

وقد تتداخلُ الحقيقة والمجاز فيشتبهان ، والطريق الى تمييز أحدهما عن الآخر أنْ يراعى الكلام ، فما كان مفتقراً إلى (١١٨) إحضارِ ذكْرِ الأصلِ فهو مجاز ، وما استغنى عن مراجعة الأصلِ فهو حقيقة أصلية ، ومادلّ ، وهو[19] فرعٌ ، واستغنى عن مراجعة أصلِهِ لكثرته وظهوره فهو حقيقة فرعية .

وتنفصلُ الحقيقة من المجاز بتغير الكلام عن أصله ، إمّا بزيادة أو نقصان أو حذف أو إبدال أو تقديم أو تأخير .

فالزيادةُ أنْ يكون الكلامُ بإدخالِ الكلمة وإخراجِها لمعنى واحد ، كقوله تعالى : «فبِما رحمةٍ من الله»[20] ، «ولمّا أنْ جاءتْ رُسُلُنا»[21] ، «للذين هم لربِّهم يرهبون»[22] و «ما أُريدُ منهم من رِزْقٍ»[23] ، «فليحذرِ الذين يخالفونَ عن أمرِهِ»[24] ، «ولقدْ مكّناهم فيما إنْ مكّناكم فيه»[25] و «عمّا قليلٍ»[26] و «أيّاً ماتدعوا»[27] و «ليسَ كمِثْلِهِ شيءٌ»[28] ونظائر لهذه كثيرة في كتاب الله سبحانه وتعالى .

وكقولك : ماجاءني من أحدٍ وليسَ زيدٌ بقائم .

والحذف أنْ يكونَ الكلامُ لايصحُّ حتى يُقَدّرَ معه شيءٌ آخر كقوله تعالى : «وَسْئَلِ القريةَ»[٢٩] ، أي أهل القرية. وقول العرب : (بنو فلان تطؤُهُمَ الطريقُ)[٣٠]، أي أهل الطريق.

والإبدال أنْ يكونَ الأصلُ غيرَ الملفوظ في الاستعمال ، وهو يقعُ في باب الاستعارة كثيراً ، كقوله تعالى : «سميعُ الدعاءِ»[٣١] أي مجيبُ الدعاء .

والتقديمُ والتأخيرُ أنْ يكونَ الكلامُ على غيرِ أصلِهِ في الترتيب كقولهم : (أدخلتُ القلنسوةَ في راسي)[٣٢] . وإنّما هو أدخلتُ راسي في القلنسوة .

وقد يُغَيِّرُ الشيءُ عن الاصل ولايُغَيِّرُ ماكانَ في معناه ، وذلك كقولهم في صفة الله تعالى : عليٌّ بمعنى قاهرٍ ، ولا يقولون : رفيع بمعنى قاهرٍ .

وأوّل التغير مجازٌ ، فإذا كثرَ حتى يستغني في دلالته عن مراعاةِ (١١٩) أصله فهو حقيقة ، فتقول : لم يزَلِ الله علياً ، لأنّ هذه اللفظةَ قد كثرَ استعمالُها بمعنى قاهر حتى صارتْ حقيقةً .

والفصلُ بينَ الحدِّ والحقيقةِ أنَّ الحَدَّ يفيدُ عِلماً بالمحدود غيرِ العلم الأوّل ، والحقيقة إنّما تأتي بالدلالة الموضوعة له على التحقيق دونَ المجازِ ، فإنْ قالَ قائلٌ : ماحقيقةُ سميعِ الدعاءِ ؟ قُلنا : مجيب الدعاء . وهذا ليسَ بحدٍّ إذْ لايفيدُ علماً غير العلم الأوّل ، والحَدُّ<ليس> من التفسير اللغوي في شيء . والحدُّ لابُدَّ أنْ يفصلَ المحدود من غيره ويميّزه من سواه ، والحقيقةُ قد تكونُ ماليس له غير ، كقولك : الشيء ، فإنّهُ لاغيرَ له فيفصلَ منه .

وأيضاً فإنّ الحدَّ يقومُ من الجنس والفصل والحقيقة تقومُ من الأصل، والحقيقة نظير الأصل في العبارة، والتحقيق نظير التحديد ، ومطابقةُ اللفظ للمعنى نظيرُ الحقيقة ، والفرع في الكلام والتعبير عن الأصل نظير المجاز ، والعِلّةُ التي من أجلها كان القولُ حقيقةً دلالته على المعنى بغير وسيطةٍ ، وسواء كانَ ذلك في أوّل الوضع أوصار عليه فيما بعدُ ، والعِلّةُ التي لأجلها كان القولُ مجازاً دلالتُه على المعنى بتقدير الأصل ، ولايكونُ كذلكَ إلّا وهو معبّر عن الأصل .

وقد تكونُ دلالةُ المجازِ أوضحَ من دلالة الحقيقة ، وذلك بالإيجاز والاستعارة : أمّا الإيجازُ فلسهولة المطلب وقرب المتناول ، وأمّا الاستعارةُ فلإخراج ما لاتقعُ عليه الحاسة الى ماتقعُ عليه الحاسة .

والمجازُ كلُّهُ مع ذلك إذا وقع فيه التباسٌ[٣٣] فُسِّرَ بالحقيقة ، وإنّما يكونُ المجازُ أوضح إذا أوصلَ الى النفس معنى الحقيقة (١٢٠) وزاد عليه في الدلالة مايكونُ تميّز له المثل المضروب للحقيقة ، فأمّا إذا عزُبَ عن النفس معنى الحقيقة فلابُدّ من الرجوع اليه بالتفسير له .

وقد ذهبَ قومٌ الى أنّ المجازَ كذبٌ . وهذا قولٌ فاسدٌ ، لأنّ الصدق والكذب إنّما يدخل في الاخبار ، ولو كانَ المجازُ كذباً وكلَّ فعلٍ يُنسبُ الى مَنْ لايصحُّ منه الفعلُ باطلاً لفسدَ أكثرُ الكلام لأنّهم يقولون : نَبَتَ البقلُ ، وطالَ السَّحَرُ ، وأينعَ الثمرُ ، ورخصَ السِّعْرُ ، وكان هذا الفعلُ منكَ في وقتِ

كذا ، والفعلُ لم يكنْ وإنّما كُوِّنَ ، والله سبحانه يقولُ : «فإذا عزمَ الأمرُ» [34] والأمرُ لايعزمُ وإنّما يُعزمُ عليه . ويقولُ : «فما ربِحَتْ تجارتُهم»[35] والتجارةُ لاتربحُ وإنّما يُربحُ فيها .

ولو شاءَ معبّرٌ أنْ يعبّرَ عن هذه الأحوال وأمثالها بعبارة لاينسبُ إليها فِعْل لتعذّرَ عليه في هذه اللغة ، نعم وفي غيرها منَ اللغات . والعربُ تقولُ : (بأرض بني فلانٍ شجرٌ قد صاحَ) ، إذا طالَ ، لمّا تبيّنَ الشجرُ للناظرين بطوله دلّ على نفسه ، جعلوه كأنّه صائحٌ ، لأنّ الصائح يدلّ على نفسه . ومثلُهُ قولُ العُجاج[36] :

كالكرْمِ إذ نادى من الكافورِ

وتقولُ : هذا شجرٌ واعدٌ ، كأنّه لمّا نوّرَ وَعَدَ أنْ يثمرَ ، ونباتٌ واعِدٌ : إذا أقبلَ بماءٍ ونَضْرَةٍ . قال سُوَيْدُ ابنُ كُراع[37] وذكر النَّوْرَ :

رَعَى غيرَ مذعورٍ بهنَّ ورائَهُ لَعاعٌ تهاداهُ الذُّكادِكُ واعِدُ

(١٢١) وهذا كافٍ في تعرُّفِ أحكامِ المجاز .

قول في الايجاز[38] :

قد[39] ذكرنا عند القول على كميّة الكلام المواضعَ التي تصلح للايجاز والاختصار وحذف فضول الكلام ، واستوفينا ما يختصُّ بهذا المعنى هناك استيفاءً لانحتاجُ معه الى اعادة قولٍ فيه .

ونحن نذكر هاهنا ماهية الايجاز وأوضاعه والوجه في استعماله ، لنكونَ قد وفّينا هذا الكتاب حقّه بوضع كلّ فَنٍّ منه في موضعه .

فنقول : إنّ الايجاز هو العبارة عن الغرض بأقلّ مايمكنُ من الحروف .

وهو على ضَرْبَيْنِ :

أحدهما : مطابقَة العبارة للغرض من غير زيادة ولانقص ، وهذا الذي قلنا فيما تقدّم انه مساواة اللفظ للمعنى .

والآخر : أنْ يكون في اللفظ حذفٌ للغناء عنه في ذلك الموضع ، كقولك : بنو فلان يطؤهم أهل الطريق ، والسخاءُ سخاءُ حاتم . والمحذوف : بنو فلان تطؤهم الطريق ، والسخاءُ حاتمٌ .

وقد يُحذف المبتدأ ، كقولهم : الهلالُ والله . وقوله تعالى : « سورةٌ أنزلناها »[40] أي : هذا الهلالُ ، وهذه سورةٌ .

ويحذفون الخبر ، كقوله سبحانه : « طاعةٌ وقولٌ معروفٌ »[١١] . أي : طاعةٌ وقولٌ معروفٌ أمثلُ .

ويحذفون خبر (إنَّ) ، كقول الشاعر[١٢] :

إن مَحَـلاً وإنَّ مـرتَحَـلاً وإنَّ في الـسَّـفْـرِ إنْ مَـضَـوْا مَـهَـلا

أي : إن لنا محلاً .

ويحذفون الجواب ، كقوله ، عزّ اسمه ، « ولو انَّ قُرآناً سُيِّرتْ به الجبالُ او قُطِّعَتْ بـه الارضِ أو كُلِّمَ به الموتى »[١٣] . كأنّه قِيلَ : لكان هذا القرآن . وقولهِ تعالى (١٢٢) : « وسيق الذينَ اتّقَوْا ربَّهم الى الجَنَّةِ زُمَراً حتى اذا جاءوها وفُتِحَتْ أبوابُها وقالَ لهم خَزَنَتُها سلامٌ عليكُم طِبْتُمْ فادخلوها خالدين »[١٤] . فكأنّه قيلَ :

حصلوا على النعيم الذي لايشوبُهُ تكديرٌ ، وإنّما صارَ حذفُ الجوابِ هاهنا أبلغَ من اتيانه ، لأنّ النفسَ تذهبُ كلَّ مذهبٍ ، ولو ذُكِرَ لكانَ مقصوراً على ماذكرناه .

ويحذفون المضاف ويقيمون المضاف اليه مقامه ويجعلون الفعلَ له ، كقوله تعالى : « وأشربوا في قلوبهم العِجْلَ »[١٥] أي : حبَّ العِجْلَ ، وقوله : « ولكِنَّ البِرَّ من آمنَ بالله »[١٦] ، أي : بِرُّ مَنْ آمنَ بالله ، وقوله : « وَسْئلِ القرية »[١٧] ، أي : أهلَ القريةِ ، وقول الهُذَليّ[١٨] :

يُمَشِّي بَيْنَنا حانوتُ خَمْرٍ من [الخُرْس] الصراصرةِ القِطاطِ

أي : صاحب حانوت خمرٍ .

ومن الحذف ان يوقع الفعل على شيئين وهو على احدهما ويضمر للآخر فعله ، كقولِهِ تعالى : « يطوفُ عليهم وِلْدانٌ مُخَلَّدُون بأكوابٍ وأباريقَ وكأسٍ من معينٍ . . وفاكهةٍ مما يتخيرون ولَحْمِ طَيْرٍ مما يشتهونَ وحُورٌ عِينٌ »[١٩] . والفاكهة والحور واللحم لايُطافُ ، وإنّما أرادَ : ويؤتون بفاكهةٍ ولحمِ طيرٍ وحورٍ ، وكقولِ الشاعر[٢٠] :

إذا ما الغانياتُ وبَرَزْنَ يوماً وزُجِّجْنَ الحواجبَ والعُيونا

والعيون لاتُزجَّج ، وانما اراد : وزَجَّجْنَ الحواجبَ وكَحَّلْنَ العيونَ .

ويحذفون الكلمة والكلمتين اختصاراً كقوله تعالى : « ولو ترى اذِ المجرمونَ ناكِسوا رُءوسِهِمْ عندَ ربِّهم رَبَّنا (١٢٣) أبصرنا وسمعنا »[٢١] أي : يقولون ربَّنا أبصرنا وسَمِعنا ، وكقول ذي الرُّمَّةِ[٢٢] يصف حميراً :

فلمّا لَبِسْنَ الليلَ أو حينَ نصَّبَتْ له مِن خَذا آذانِها وهو جامِحُ

أراد : أوحين اقبل . وكقوله تعالى « قُل هي للذينَ آمنوا في الحياة الدنيا خالصةً يومَ القيامةِ »[٥٣] . أي : هي للذين آمنوا في الحياة مشتركةً وفي الآخرة خالصةً .

ويحذفون بعضَ الكلام بالاختصار والاضمار فيشكل ، كقوله تعالى : « أفمنْ زُيِّنَ لهُ سوءُ عملِهِ فرآه حَسَناً فإنَّ الله يُضِلُّ مَنْ يشاءُ ويَهْدي مَنْ يشاءُ فلا تذهبْ نفسُك عليهم حَسَراتٍ »[٥٤] . والمعنى : أفَمَنْ زُيِّنَ له سوءُ عملِهِ فرآه حسناً ذهبت نفسُك حَسْرةً عليه فلا تذهب نفسُك حسراتٍ عليهم فإنَّ الله يُضِلُّ مَنْ يشاء ويهدي من يشاء . وكقول الشاعر[٥٥] :

فلا تدفنوني إنَّ دفني مُحَرَّمٌ عليكم ولكنْ خامري أمَّ عامِرِ

يريد : لاتدفنوني ولكن دعوني للتي يُقالُ لها اذا صِيدَتْ : خامري أمّ عامر ، يعني الضيغمَ ليأكلني .

ويحذفون جواب القسم ، كقوله تعالى : « ق والقرآن المجيد بل عجبوا أنْ جاءهم مُنذرٌ منهم فقالَ الكافرون هذا شيءٌ عجيبٌ أئذامِتْنَا وكُنَّا تُراباً [ذلكَ رجْعٌ بعيدٌ][٥٦] » . كأنّه قيلَ : ق والقرآن المجيد لتُبْعَثُنَّ ، فقال الكافرون : هذا شيءٌ عجيب ، أَإِذا مِتنا نُبعَثُ ، ثم قالوا : ذلك رَجْعٌ بعيدٌ .

ويحذفون (لا) من الكلام ، والمعنى إثباتها ، كقوله تعالى :

« تالله تَفْتَؤُتذكرُ يُوسُفَ »[٥٧] . والمعنى : لاتزالُ تذكر يوسف . وكقول الشاعر[٥٨] :

فقلتُ يمينَ الله أَبْرَحُ قاعِداً

(١٢٤) ومن الحذف أنْ يضمروا لغير مذكورٍ اختصاراً ، كقوله تعالى :
« حتى توارَتْ بالحِجابِ »[٥٩] ، يعني الشمس ولم يذكرها قَبْلُ . وكقولِ لَبيد[٦٠] :

حتى إذا ألْقَتْ يداً في كافرٍ وأجَنَّ عَوْراتِ الثغور ظَلامُها

ويحذفون الصفات ، كقوله ، عزّ اسمه : « واذا كالوهم أو وزَنوهم يخسرون »[٦١] ، والمعنى : واذا كالوا لهم أو وزنوا لهم يخسرون .

ومن مستحسن الايجاز المطابق قوله تعالى : « ولكم في القِصاص حياةٌ »[٦٢] لِما فيه من حُسن النظم وقِلّة الحروف ووضوح الابانة .

وقوله تعالى : « يحسبون كلَّ صَيْحةٍ عليهم »[٦٣] والغرضُ فيه المبالغة في وصفهم بالفزع ، وقد بلغ في سهولة العبارة وقلّة النظم كلّ مبلغ في الوصف بذلك .

وقول النبيّ صلى الله عليه وسلم : (إنّكم لتكثرونَ عندَ الفَزَعِ وتقلون عندَ الطَّمَعِ)[٦٤] ، وقولُهُ : (المرء كثيرٌ بأخيه)[٦٥] .

وقولُ عليٍّ ، عليه السلام : (قيمةُ كلِّ امريءٍ مايُحسنُ)[٦٦] ، وقولُهُ : (المرءُ مخبوءٌ تحتَ لسانِهِ وتكلّموا تُعْرَفوا)[٦٧] .

وقول ابن عباس[٦٨] وقد سُئل : أنّىٰ لك هذا العلمُ ؟ فقال : قلبٌ عقولٌ ولسانٌ سؤولٌ .
والايجاز على ضربين : حذْفٌ وحَصْرٌ .
فالحذفُ : إسقاط كلمةٍ من الأصل ، ! وقد مُثّل بأمثلةٍ كثيرةٍ .
والحَصْرُ : ايراد المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة ، كقولِ امرىء القيس[٦٩] :

عـلى هَيْكـلٍ يعـطيـك [قبـل سؤالِـهِ] أفـانـينَ جَـرْيٍ غـيرَ كـزٍّ ولا وَانِ

(١٢٥) لأنّه قد جمع بقوله (أفانين) مالو فَصَّلَه وعدده لكان كثيراً .
فالكلام يُنسبُ الى الطول لثلاثة أشياء : الخروج عن الغرض ، وسلوك الطريق الابعد في الابانة عن المعنى ، وكثرة الفائدة .

فالأول : كالذي يدخل في الدعاء من الاطراء والتعظيم والتشبيب الذي يتقدم المدح .
والثاني : كقولك : تحرّكَ حركةً سريعةً في مكان : أَسْرعَ .
والثالث : كقولك في المدح : فلانٌ نِعْمَ الرجلُ .

فان قلتَ : صحّتْ ديانته وتمّت مروءته ، فقد أفدتَ تفسير الأول .
فان قلت : كريم الأصل زكيّ الفرع ، فقد زدتَ في الفائدة مالم يتقدّم ذكرُهُ في جُملةٍ ولاتفصيلٍ .

والكلامُ يتفاضَلُ في الايجاز ، وذلكَ كقولك : لو جازَ أنْ يقوّمَ الانسان لكانت قيمتُهُ بحسَبَ مايُحسِنُ . وأحسنُ منه قولُ عليٍّ ، عليه السلام : (قيمةُ كلِّ امريءٍ مايُحْسِنُ) .

ومن مُستحسن الشعر الموجز قولُ زُهير[٧٠] :

مَنْ يلقَ يوماً على عِلّاتِهِ هَرِماً ... يلقَ السماحةَ منه والندى خُلُقا

وقولُ جرير[٧١] :

إذا غَضِبَتْ عليكَ بنو تَميم ... حَسِبْتَ الناسَ كُلَّهُمُ غِضابا

وقال عبدالرحمن بن حسّان[٧٢] :

وإنّ امرءاً يُمسي ويُصبحُ سالِماً ... من الناسِ إلّا ماجَنَى لَسَعِيدُ

والنُظمُ الوجيزُ كثيرٌ .

والاختصار على ضَرْبَيْنِ : اختصار باسقاط معنى ، واختصار من غير إسقاط معنى .

(١٢٦) فالاختصارُ باسقاط معنى يحسُنُ عند ذكر الأهمّ وماكانت الحاجة اليه ألزم لتقدّم الأولى بالتقدمة .

والاختصار من غير اسقاط معنى يكون لخمسة أوجُهٍ :

الجملة والاستعارة والتشبيه والتخليص والترتيب .

فالاختصار بالجملة يوضحه التمثيل بالعدد ، لأنّك اذا قُلتَ :

(عليه تسعةُ واحد عشرَ وثلاثة عشرَ وسبعة عشر) ، كان قولُك : (عليك خمسون) أخصرُ من التفصيل ولم يخلّ .

ومن الاختصار بالجملة ذكرُ الجنسِ بدلاً من الأنواع ، كقولك : (الله خالقُ الافلاك والارضين والرياح والامطار والسُحبِ والحيوانات وغيرها من الجزئيات والكليات) . فاذا اختصرتَ قلتَ : (لله خالقُ كلِّ جوهر موجود) ، أتيتَ بالمعنى من غير اخلالٍ ، إلّا أنّ تفصيلَ الأنواع أبْيَنُ ، فذكرُهُ يحسنُ في موضع الأطناب للبيان .

ومنه : وضع الاستخبار على الانتظام ، كقولك : (أينَ فلانٌ) ؟ فقد انتظم كلّ مايستخبر عنه من الأمكنة وأغنى عن قولك :

(أفلانٌ بالشام أم بمصر أم بالعراق أم بغيرها) ؟ .

والاختصار بالاستعارة يبينُ المعنى الغامضِ ويُخرجُ مالاتقعُ عليه الحاسّةُ الى ماتقعُ عليه الحاسّةُ ومالم تتمكنْ به المعرفةُ الى ماتتمكن به ، ويوجبُ اختصاراً لامحالةَ ، لأنّه لوعبّر عنه على الحقيقة لاحتيج الى شرح طويل يظهره بعد غموضه ، ومثالُ ذلكَ أنّكَ لو أسقطت الاستعارة من قولِ امرىء القيس[٧٣] في وصف الفرس (قيد الأوابد)

لاحتجتَ انْ تقول : (هذا الفرسُ لشدّة عَدْوه (١٢٧) يتمكّن من أخذِ الأوابدِ أشدّ تمكّن فكأنّه يقيّدُها) ، وصفته بـ (قيد الأوابد) يغني عن هذا كلّه .

والاختصار بالتشبيه[٧١] يُخرج المعنى الأغمض الى الأوضح كما تُخرجه الاستعارة ، وذاك أنّكَ اذا قلتَ : (ادراك العقل للمعاني كادراكِ البصر للمبصرات) أوضحتَ واستغنيتَ عن إطالة الشرح والتفسير .

والاختصار بالتخليص أنّكَ اذا خلّصْتَ معنىً مما اختلط به استغنيتَ ان تذكر ماليس منه مع ذكره . وهذا يُدرك بالبحث عن الغرض ومايُحتاج في الغرض اليه ومايُطابقه . فاذا علمتَ هذه الاشياءَ بان الحشوُ في الكلام والفضول التي لايُحتاج اليها .

فامّا الاختصار بالترتيب فإنّ الترتيب اذا وقع في الكلام بانَ واستغنى عن الشرح ، واذا عُدِمَ الترتيبُ استغلق واحتاج الى التكرير والتفسير ، ومَنْ عرفَ مرتبة الشيء قصده واستغنى عن تطلّبه ، ولايستوي مَنْ طلب شيئاً ومَنْ يعرفُ موضعه ، اذْ مَنْ طلبَ شيئاً وهو يعرفُ موضعَه غير محتاج الى تكلّف ما يحتاج الى تكلّفه مَنْ طلبَ شيئاً وهو لايعرفُ موضعَهُ . وهذه سبيلُ المعاني إذا رُتّبَتْ وإذا لم تُرَتّبْ .

والايجاز والاطناب المقرونان بالإنابة داخلان في حكم البلاغة ، كما أنّ التقصير والتطويل داخلان في حكم العيّ كما ذكرنا فيما سلف .

والايجاز شرطه ألّا يخل بشيء من المعنى المُفاض فيه ، وليس كذلك التقصير فإنّه لابُدّ من تخلُّل الاخلال له .

والاطنابُ حكمه تفصيل المعنى وايراد توابِعِهِ (١٢٨) واقتصاص الفروع المتشعبة منه في المواضع التي يحسن فيها التفصيل ، وله أمكنة يفتقر فيها الى استعماله قد عددناها فيما تقدّم .

وامّا التطويل فعيٌ لأنه تكلّف الكثير فيما يكفي فيه القليل ، ومستعمله كسالك الطريق البعيدة جهلاً منه بالقريبة النزهة ، ومستعمل الأطناب البيّنِ ليسَ كذلك لأنّه كسالك طريق بعيدة .

والايجاز أيضاً على وجهين :
احدهما : إظهار النكتة بعد الاحاطة بشرح الجملة ، وهذا يكون في العلوم القياسية ، لانّ الجملة اذا حصلت اكتفى بذكر النكتةِ[٧٢] لأنّها حينئذ تكون دالةً عليها . وهذا الضربُ من الايجاز لايكون إلّا بعد ما يتقرر في النفس من المعرفة بشرح الجملة .

والآخر : اختصار المعنى بأقلّ مايُمكن من العبارة ، وهذا لم يتقرّر له حال خاصّة يكون جاراً لها من حيثُ يعلقُ بها عند مَنْ فهم كيفَ وجهُ التعلّق فيهما .

وهذا كافٍ في معرفة أحكام الايجاز ، ومع بَسْطِنا للقول في الايجاز وتعريفنا بضُروبه ووجوهه فلا ينبغي للكاتب أنْ يستعملَ اكثر ماذكرناه من الحذف الواقع فيه في الرسائل ، ذاهباً في ذلك مذهب القرآن ، فإنّ القرآنَ نزل بلغة العرب فخُوطبوا بالمتعارف بينهم ، وليسَ كذلك حكم الرسائل ، وإنّما ينبغي له أنْ يعرفَ أحكامَهُ ، ويكون الذي يستعمله من الايجاز جمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة ، والمطابقة التي هي مساواة اللفظ للمعنى في المواضع التي (١٢٩) تقتضي ذلك حسبما بيّناه في باب البلاغة وأقسامها الأصلية .

قول في الاستعارة[٣١] :

للاستعارة موقعٌ من البلاغة خطيرٌ وموضعٌ من الابانة كبيرٌ ، لأنها اذا وُفيت حقّها ووُضعت بحيث يليق بها كسبتْ اللفظَ جوهريةً تنقله عمّا كان عليه لو استعمل على ماوضع في اللغة زادته وضوحاً يضوّع أريجُه ويسيغ اجيجُه .

والفرقُ بينها وبين التشبيه أنّ التشبيه على أصله في الكلام لايستعمل إلّا بأداته الموضوعة له في أصل اللغة فلم يتغير عن حقيقته . وليست كذلك الاستعارة لانها تعليق العبارة على غير ماوُضعت له في اصل اللغة .

وكلُّ استعارةٍ فلابُد فيها من ثلاثة أشياء : مُستعارٌ منه ، ومُستعارٌ لهُ ، ومستعارٌ .
فالمستعارُ منه : هو معنى الأصل الذي وُضعتْ له العبارة أوّلاً .
والمستعارُ له : هو معنى الفرع ، وهو المعنى الذي لم توضع له العبارة أوّلاً .
والمستعارُ : هو اللفظ الذي نُقِلَ عن معنى الأصل الى معنى الفرع .

والمستعارُ منه والمستعارُ له لابُدّ من اشتراكهما في معنى واحد ، إلّا أنّ المستعار منه هو الحقيقة ، وله قوةٌ في المعنى والدلالة ليست للمستعار له ، ولولا اشتراكهما في معنى واحد لم يكن هناك مناسبة ولامقاربة ولكانَ كلُّ واحد منهما غريباً من الآخر وكانتِ الاستعارةُ لاتحسُنُ .

(١٣٠) وكلُّ استعارةٍ فهي جمعٌ بينَ شيئين بمعنىً مشترك بينهما يكسب بيانَ احدهما بالآخر كالتشبيه ، إلّا ان الاستعارةَ نقلُ الكلمةِ بأداته الدالّة عليه .

والإستعارات كلُّها تتضمَّنُ معنى التشبيه ، وليسَ كلُّ تشبيهٍ يتضمَّنُ معنى الاستعارة .
وكلُّ استعارةٍ بليغةٍ فهي توجبُ بياناً لاتقومُ فيها الحقيقة مقامها ، ولو قامتِ الحقيقةُ ذلك المقامَ لأجْزَت ولم يُحتج الى الاستعارة .

ولو استعرت استعارةً اجتمع المستعار له والمستعار منه فيها في معنيين متشاكلين غير متماثلين لم يخرجهما ذلك من ان تكون[٣٦] المشاكلة تجمعهما في معنىً من أجلهِ تشاكلاً إمّا بالنفس وإمّا بغيرها .

ولاتخلو استعارةٌ من حقيقة ومعنى مشترك بين المستعار والمستعار له وبيان لايُفهم بالحقيقة ، فالحقيقةُ هي أصلُ الدلالة على المعنى في اللغة ، كقوله تعالى : « وقدمنا الى ماعملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً »[٣٧] . وحقيقة (قدمنا) : عمدنا ، و(قدمنا) أبلغُ ، لأنَّهُ يدلُّ على أنه عاملهم معاملة القادم من سفره ، لأنّه لأمهاله اياهم كالغائب عنهم ، فلمّا قدم رآهم على خلاف مالَهِمَ به ، والهباء المنثور : ماترى في شعاع الشمس الداخل من الكوى ، والهباء المنبث : ماسطع من سنابك الخيل . وانما اراد : أنّا أبطلناه كما أنّ هذا مبطلٌ لايُلمسُ ولايُنتفع به .

وكقوله : « فاصدع بما تؤمر »[٣٩] : حقيقته فبلّغ ، إلاّ انّ للصدعِ تأثيراً كتأثير صدع (١٣١) الزجاجة ، والتبليغ قد يضعف حتى يكونَ لاتأثيرَ له ويجمع معناهما الاتصال ، والاتصالُ الذي له تأثيرٌ كصدع الزجاجة أبلغُ من الاتصال الذي لاتأثير له .

وكصفة امرىء القيس الفرس بـ (قيد الأوابد) والحقيقة مانع الأوابد ، و(قيد الأوابد) أنصعُ وأبلغُ .
وكقولهم : (العروض ميزان الشعر) ، حقيقته[٨٠] تقويم الشعر ، والاستعارة فيه أحسنُ .
والمعنى المشترك بين المستعار ﴿منه﴾ والمستعار له والبيان الذي يفهم بالاستعارة ولايُفهم بالحقيقة يتضحُ بهذا التمثيل : قال الله تعالى : « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة »[٨١] ، المستعار منه جناح الطائر ، والمستعار له الذّلّ ، والمعنى الذي يجمعهما الانخفاض ، والبيانُ الذي يُفهم بالاستعارة ولايُفهم بالحقيقة أنّ انخفاض الطائر بجناحه أبْيَنُ من انخفاض الانسان بدلالة أنّه يساعدُ انخفاض الطائر بجناحه وله في ذلك قُوّةٌ ليست لغيره ، لأنه على حسب قوته في الاستعارة تكونُ قوّته في الانخفاض .

وقال سبحانه : « واشتعل الرأسُ شيباً »[٨٢] ، المستعار منه النار ، والمستعار له الشيب ، والمعنى الذي يجمعهما الانبساط ، وانبساط النار فيما وقعت فيه أقوى ، فالقوّةُ هاهنا للانبساط وهي أبْيَنُ .

وقال سبحانه : « وفي عادٍ إذ أرسلنا عليهم الريحَ العقيم »[٨٣] ، المستعارُ منه المرأةُ ، والمستعار له الريحُ ، والمعنى الجامعُ لهما النَّشْءُ . والمرأة العقيم يمنعُ منها نشءُ ولدٍ ، والريح يمتنع منها نَشْءُ سحابٍ . (١٣٢)

والاستعارةُ على ضَربين : حسنة وقبيحة .

فالحسنةُ : ما أوجبت بلاغةً ببيانٍ لاتنوبُ فيه الحقيقةُ منابها ، كوصفِ امرىء القيس الفرسَ بـ (قيد الأوابد) .

والمراتب على مراتب في القُبح ، فأقبحها ماخلا من وجوه البلاغة ، واقربُها من الحسنة ماكثرت فيه وجوهُ البلاغة ، ومايُرتب على حسب كثرةِ أسبابِ البلاغة وقِلتها .

وقد عاب قومٌ على أبي تمّام قولَهُ[٨٤] :

لاتسقني ماءَ الملامِ فإنّني ... صَبٌّ قد استعذبتُ ماء بُكائي

لأن قوله : (ماء الملام) لابيان فيه ، بل قوله : (لاتلمني) وهو حقيقة أوجز وأبين .
ومثلُ هذا قد يَحسنُ بعضَ الحُسنِ لِما فيه من مطابقة (ماء الملام) بماء البكاء ، كما تحسنُ الاستعارةُ على المزاوجة ، وهي كقوله تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثلِ ما اعتدى عليكم »[٨٥] ، فالاعتداء الثاني ليسَ باعتداءٍ وانما هو جزاءٌ ، وفي هذه الاستعارة بيانٌ لاتبلغه الحقيقةُ .

وأما قولُهُ[٨٦] :

سبعون ألفاً كآساد الشرى نضجت ... أعمارهم قبل نُضج التين والعنبِ

فاستعارة في غاية القُبح ، اذ ليس فيها بيانٌ يحسنُ في البلاغة لاتؤديه الحقيقةُ ، ولامطابقة كالمطابقة في البيت المتقدُم ، على أنّ بعضَ المفسرين قد احتجّ له في هذه الاستعارةِ بأنّ الرومَ كانوا يقولون : لاينضجُ التينُ والعنبُ حتى يهلكَ هؤلاء القوم ، (١٣٣) فلمّا أهلكهم المسلمون قبلَ الوقتِ الذي كانوا ينتظرونه استعمل هذه الاستعارة على وجه التكذيب . وهذا مالايلزم ان يعرفه السامعُ ولايجري الى خلده .

ومن الاستعارةِ القبيحة قولُ بعضهم[٨٧] :

اسفري للعيونِ ياضَرّةَ الشمسِ

لبُعده من جميع طرق الاستعارة وخروجه عن دائرتها ، وماجَرّأ هذا المستعير على الاستعارة إلّا ظنّه أنّ الضرّة لاتكونُ إلّا وضيئة جميلة .

WWW.ATTAWEEL.COM

ومما يفرقُ بين الاستعارتين القبيحة والحسنة قول الشاعر :

أَيَا مَنْ رَمَى قلبي بسَهْمٍ فأنفذا

نقوله : « فأنفذا » استعارة حسنة ، لأنها بلاغة في وصفِ السرعةِ والسهولة ، وكذلك لو قالَ : (فأقصدا) لأنها بلاغة في تحقيق الاصابة . ولو قال : (فأدخلا) أو (فأولجا) لكانت استعارة قبيحة مخالفة للبلاغة ، لأنّها لاتوجبُ المبالغة في الوصفِ بالسهولة والسرعة .

والأصلُ في الاستعارة أنّ العربَ كانت تستعيرُ الكلمةَ فتضعها في مكان الكلمة اذا كانت مجاورة لها أو بسببٍ منها ، فيقولون للنبات : نَوْءٌ ، لأنّه عن النَّوْءِ يكون . قال رؤبة[٨٨] :

وجَفَّ أنواءُ السّحابِ المرتزقْ

أي : جفَّ البَقْلُ .

ويقولون : أصابنا ربيعٌ باكرٌ ، أي مطرٌ ، لأنّه يكون في الربيع (١٣٤) ويقولون للمطر : سماءٌ ، لأنه ينزل من السماء ، قال الشاعر[٨٩] :

اذا سَقَطَ السماءُ بأرضِ قومٍ وَطِئْناهُ وإنْ كانوا غِضابا

ومنه قولُهم : مازلنا نَطَأُ السماءَ حتى أتَيناكم .
ويقولون : وَسَمَ فلانٌ فلاناً بميسم سوءٍ ، اذا ألصقَ به عاراً . قال الله تعالى في الوليد بن المُغيرة : « سَنَسِمُهُ على الخُرطومِ »[٩٠] أي : نُلصقُ به عاراً ، ولاعارَ أفحش ممّا وصفه به من الحِلف والغيبة والنميمة والبُخل والظُّلم والأثم والجفاء والدعوة . قالَ جريرٌ[٩١] :

لَما وَضَعْتُ على الفرزدقِ ميسَمي
وَضَعَا البعيثُ جَدَعْتُ أنفَ الأخْطَلِ

يريد : أنه أبقى عليهما من عار الهجاء مايقومُ مقامَ الجَدْعِ والوسم .
ويقولون : ذُقْ ماعند فُلانٍ ، وذُقِ الفرسَ . أي : اختبرهما . وأصل الذوق بالفم ، ولكنّه لَمّا كانَ الذوقُ للاختبار والاعتبار رُدَّ الى أصله . وأمثالُ هذا في الكلام كثيرٌ .

ثمّ وقع التوسُّعُ في الاستعارات واستنبطَ الناسُ منها ماحلوه على حكم اللغة لتحسينها للكلامِ ومنابِها في البيان المنابَ الذي لاتنوبُه الحقائقُ .

ومن الاستعارة في كتاب الله :
قولُهُ سبحانه : « إنّا لمّا طَغَا الماءُ »[٩٢] .
وقوله : « بريحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ »[٩٣] .
وقوله : « سَمِعوا لها شهيقاً وهي تفورُ »[٩٤] .
وقوله : « ولمّا سَكَتَ عن موسى الغَضَبُ »[٩٥] .
وقوله : « وأفئدتُهم هواءٌ »[٩٦] .
وقوله : « ولايُظلمون فتيلاً »[٩٧] .
وقوله : « ولايُظلمون نقيرا »[٩٨] .
وقوله : « يومَ يُكشَفُ عن ساقٍ »[٩٩] .
(١٥٣) وقوله : « مايملكونَ من قطمير »[١٠٠] .
وقوله : « وكذلكَ أعثرنا عليهم »[١٠١] .
وقوله : « وَوَضَعنا عنك وِزْرَكَ »[١٠٢] .
وقوله : « و[لكِنْ] لاتواعِدُوهُنَّ سِرّاً »[١٠٣] . والسِرُّ هاهنا النكاحُ ، لأنّ النكاحَ يكون سِرّاً ولايظهرُ .
وقوله : « نساؤكُم حَرْثٌ لكم »[١٠٤] .
وقوله : « هُنَّ لِباسٌ لكم وأنتُمْ لِباسٌ لهُنَّ »[١٠٥] .
وأمثالٌ لذلك كثيرةٌ .

ومن الاستعارة في كلام البُلغاء من الناس :

قولُ النبيِّ ، صلّى الله عليه وسلّم : (النساءُ حبائلُ الشّيطان)[١٠٦] ، و (الشبابُ شُعْبَةٌ من الجنون)[١٠٧] ، و (المسلمُ مرآةُ أخيه)[١٠٨] .
وقولُ عليٍّ عليه السلام : (السَّفَرُ ميزانُ القومِ)[١٠٩] .
وقولُ الحَسَنِ ابنِهِ عليهما السلامُ : (إذا أنكَرْتَ ذهنَكَ فاقدحْهُ بعاقلٍ) .

وقولُ الحجّاج[١١٠] : (رَحِمَ الله امرءاً جَعَلَ لنفسِهِ خطاماً وزماماً فقادها بزمامِها الى طاعة الله وذادَها بخطامِها عن معصيةِ الله) .
وقولُ بعضِهم في وَصْفِ حرب : (لَحِقوهم فجعلوا المُرّانَ أرْمِنَةَ القلوبِ فاسْتَقَوْا بها أرواحَهُم) .

وقولُ بعضِ الأعرابِ : (خرَجتُ في ليلةٍ قد ألْقَتْ على الأرضِ أكارعَها فمَحَتْ صورةَ الأبدان فما نتعارفُ إلاّ بالآذان) .

ومن الاستعارة بالشّعْرِ :

قولُ امرىء القيس[١١١] :
وليلٍ كموج البحر . . . . وقد تقدّمَ . .

وقولُ الأعشَى[١١٢] ، وذكرَ روضةً :

يُضاحِكُ الشمسَ منها كوْكَبٌ شَرِقٌ
مُؤزَّرٌ بعميمِ النّبْتِ مُكْتَهِلُ

والعربُ تقول[١١٣] : ضحِكَتِ الأرضُ ، إذا أنْبَتَتْ ، لأنّها تُبدي عن حُسْنِ النبات وتتفتّقُ (١٣٦) عن الزهر كما يفترُّ الضاحكُ عن الثغر . ولذلك قالوا لطلعِ النخلِ اذا انفتقَ عنه كافورُهُ :
الضُحكُ ، لأنه يبدو منه للناظر كبياضِ الثّغْرِ .

وقيلَ : النّوْرُ يُضاحِكُ الشمسَ ، لأنّه يدورُ معها .
وقال الآخرُ :

ضَحِكَ المُزْنُ بها ثمّ بَكَى

يريدُ بِضَحِكِهِ انعقاقه بالبرقِ ، وبِبُكائِهِ المَطَرَ .

وقولُ ذي الرّمّة[١١٤] :

ودَوِّيّةٍ مثلِ السماءِ عَسَفْتُها وقد صَبَغَ الليلُ الحَصَى بسوادِ

وقولُ دُكَيْنٍ[١١٥] :

وقد تعالَلْتُ ذَميلَ العَنْسِ
بالسَّوْطِ في ذَيْمومةٍ كالتُّرسِ

إذْ عَرَجَ الليلُ بروح الشّمسِ

وقولُ طَرَفَةَ[١١٦] :

ووَجْهٍ كأنّ الشمسَ حلّتْ رداءَها
عليه نقيُّ اللونِ لم يَتَخَدَّدِ

وقولُ الأفْوَهِ[١١٧] :

كيفَ الرّشادُ وقد خُلِّفْتَ في نَفَرٍ
لهُم عن الرُّشْدِ أغلالٌ وأقيادُ

وقولُ أبي ذُؤيْبٍ[١١٨] :

وإذا المنيةُ أنشَبَتْ أظفارَها
ألفَيْتَ كُلَّ تميمةٍ لاتَنْفَعُ

(١٣٧) وقولُ لبيدٍ[١١٩] :

الا طَرَقَتْ ميٌّ هَيوماً بذِكرِها
وأيدي الثُريّا جُنَّحٌ في المغارِبِ

وقولُ الفَرَزْدَقُ[١٢٠] :

أقامَتْ به حتى ذَوَى العودُ في الثَّرى
وساقَ الثُريّا في مُلاءَتِهِ الفَجْرُ

وقَوْلُ ابنِ المُعْتَزّ[١٢١] :

وقد رَكَضَتْ بنا خَيْلُ الملاهي
وقد طِرْنا بأجنِحَةِ السرورِ

وقولُ أبي نُواس[١٢٢] :

مازِلتُ استلُّ روحَ الدَّنِّ في لَطَفٍ
واستقي دَمَهُ من جوف مجروحِ
حتى انثنيتُ ولي روحانِ في جَسَدي
والدَّنُّ مطّرحاً دَنّاً بلا روحِ

والاستعارات كثيرةٌ في سائرِ فنونِ الكلامِ ، والذي أتَينا به كافٍ في التمثيل .

قولٌ في التشبيـــه[١٣٣] :

التشبيـــه : هو العقْد على أنّ احد الشيئين يسدُّ مسدَّ الآخر ويقومُ مقامَهُ في المشاهدة حتى لو عُدِمَ احدُهما ووُجِدَ الآخرُ لم يكن بينهما تباينٌ في الحقيقة ، كجسمينْ من فضّةٍ وجسمين من صُفرٍ ، فهذا أصـل الشَبَهِ ، والتشبيه فِعْلُ المُشبِّهِ ، والتماثُلُ ليس بفعْلٍ ، وكذلكَ التشابُهُ ، وإنّما يتصرّفُ تصرُّفَ الفعل ، وحقيقةُ التماثل بالنفس ونظيره في ذلك الوجوب ، وذلك انّك اذا قُلْتَ (١٣٨) في السوادين : إنّهما متماثلان ، فإنّهما يتماثلان بإنفسهما لابفعل فاعل ، لأنّهما في الشاهد والغائب مستحقّان لهذه الصفة .

والمماثلةُ من الألفاظ المشتركة ، فتارة تكون بمعنى التشبيه وتارة تكون بمعنى التماثل ، فإذا قلتَ : ماثِلْ بينَ الشيئين فهو كقولك : شبِّه احدهما بالآخر ، وإذا قلتَ : ماثلَ الشيءُ الشيءَ فهو بالنفس ، كقولك : تماثلَ الشيئان .

والتشبيه على ضَرْبَيْنِ : تشبيه تحقيق وتشبيه تقدير . فتشبيهُ التحقيق المطلق هو التشبيهُ بالنفس كقولك : هذا الجوهرُ كهذا الجوهر . وتشبيه التقدير هو التشبيه من وجهٍ دونَ وجهٍ كقولك : الشدّةُ كالموتِ صعوبةً ، وهذا تشبيهٌ من جهة الصعوبة فيهما لايشتبه بالنفس .

والتشبيهُ تشبيهان : أحدهما يعبّر عنه اللفظ ، والآخر يدلّ عليه العقلُ من غير عبارةٍ موضوعةٍ له ، وهو الجمعُ بين شيئين في معنى يوجبُ الاستدلالُ التماثلَ فيه . فالذي يعبّرُ عنه اللفظُ ماكانَ بآلةِ التشبيه ، كقولك : هذا كهذا ، ومثلُ هذا ، وشبه هذا ، فإذا استعملت هذه الآلة فقد وقعَ التشبيهُ ، سواء كانَ الشيئان متماثلين أو غير متماثلين في الحقيقة ، وذلك نحو : جَهْلُ زيدٍ كالظُلمةِ يتحيّرُ فيها صاحبُها ، وعلمُ زيدٍ كالنور يتصرّفُ فيه صاحبُهُ . فالجهلُ ليس من جنس الظلمة ، والعلمُ ليس من جنس النور ، وقد شُبِّه أحدُهما بالآخر .
والذي يدلّ عليه العقلُ نحو : الطعمُ جسمٌ ، والريحُ جسمٌ ، فهذا يلزم الاستدلالُ التماثلَ فيه .

(١٣٩) وقائلُهُ مشبّهٌ وإنْ خَفِيَ عليه إذا كانَ إنّما يتعرّف بالاستدلال .

والتشبيهُ إمّا بالنفس وإمّا لمعنىً : فالذي بالنفسِ هو الحقيقةُ كقولك : هذا الماءُ كهذا الماء . والذي لمعنىً كتشبيه العلم بالنور ، والمعنى الذي يجمعهما التبيين ، لأن النورَ يضيءُ فيتبين به ، والعلم يوضح فيتبين به .

وبلاغةُ التشبيهِ الجمعُ بينَ شيئينِ بمعنىً يجمعهما يُكسبُ بيانَ أحدهما بالآخر ، كقوله تعالى : « والذين يَدْعونَ

من دونه لايستجيبون لهم بشيء إلاّ كباسِطِ كَفَّيْه الى الماءِ ليَبْلُغَ فاهُ وماهو ببالِغِهِ »[١٢٤] ، فقد اجتمعا في الحاجةِ والحسرةِ على مايفوتُ من درك الطلب . وكقوله : « خُلِقَ الانسانُ مِن صَلصالٍ كالفخار »[١٢٥] ، فقد اجتمعا في الوصف بالخفاف والرّخاوة ، وقوله : « مثلُ الذين حملوا التوراةَ ثُمّ لم يحملوها كمَثَلِ الحِمارِ يحملُ أسفاراً »[١٢٦] ، فقد اجتمعا في الجهلِ بما حملا .

وقول لبيد[١٢٧] :

وجَلاَ السيولُ عن الطُّلُولِ كأنّها ... زُبُرٌ تُجِدُّ متونَها أقلامُها

فقد اجتمعت الطلول والزبر في التبيين ، لأنّ الطلولَ بيّنتها السيول والزُّبُرُ بيّنتها الأقلامُ .

وقوله أيضاً[١٢٨] :

فلها هَبابٌ في الزِّمامِ كأنّها ... صَبْهاءُ راحَ مع الجنوبِ جَهامُها

يقول : إنّ الناقةَ يسوقها نشاطُها كما تسوقُ السحابةَ الجنوبُ .

(١٤٠) وقول جرير[١٢٩] :

تُجري السُّواكَ على أغرَّ كأنّهُ ... بَرَدٌ تَحَدَّرَ من مُتونِ غَمامِ

قد اجتمعا في البياض والنقاء .

وقول ذي الرّمّة[١٣٠] :

كحلاءُ في بَرَجٍ صفراءُ في نَعَجٍ ... كأنّها فِضّةٌ قد مَسّها ذَهَبُ

فقد اجتمعا في بياضٍ يعلوه احمرارٌ .

والجواهرُ وإنْ كانَ اشتباهها بالنفيس فإنّ التشبيه يقعُ ولا يُراد تشبيه النفس ، نحو قولنا : (هذا الخلّ في شِدّة حموضتِهِ كهذا العسل في شِدّة حلاوته) . ولايُستعمل هذا الضّرب من التشبيه إلاّ مقيّداً .

والتشبيهُ البليغ ما أخرجَ الأغمضَ الى الأظهر بأداة التشبيه مع حسن التأليف ، وبينَ البُلغاء في ذلك تفاضلٌ .

والأظهرُ الذي يقعُ البيانُ بالتشبيه به على وجوهٍ[١٣١] :

منها : إخراجُ مالاتقعُ عليه الحاسّة الى ماتقع عليه الحاسّة ، وهو كتشبيه المعدوم بالغائب .

ومنها : إخراجِ مالم تجربه العادةُ الى ماجَرَتْ به العادةُ ، كتشبيه البعث بعدَ الموت بالاستيقاظ بعدَ النوم .
ومنها : إخراج مالايُعلمُ بالبديهة الى مايُعلمُ بالبديهة ، كتشبيه إعادة الأجسام بإعادة الكتاب .
ومنها : إخراجُ مالاقُوَّةَ له بالصِّفَةِ الى ماله قُوَّةٌ في الصِّفةِ ، كتشبيه ضياء الذبالة بضياء النهار .

وقالَ بعضُ أهل البلاغةِ : التشبيهُ على أربعةِ أَضْرُب : تشبيه عينٍ (١٤١) بعينٍ ، وتشبيه حَدَث بحَدَثٍ ، وتشبيه عينٍ بحَدَثٍ ، وتشبيه حَدَثٍ بعينٍ .

فتشبيهُ العين بالعين ، كقول امرىء القيس[١٣٢] :

نظرتُ إليها والنجومُ كأنّها مصابيحُ رُهبانٍ تُشَبُّ لقُفّالِ

فشبّه إضاءةَ النجومِ بإضاءة المصابيح فهما عَيْنان .

وتشبيه الحَدَث بالحَدَث ، كقول الآخر[١٣٣] :

كأنّ بينَ شُخْبِها غُدَيَّه
حفيف ريحٍ أونسيس حَيَّه

فشبه الصوتَ بحفيف الريح ، وهما حَدَثان .

وتشبيه العينِ بالحَدَثِ ، كقول النابغة[١٣٤] :

فإنّك كالليلِ الذي هو مُدْركي وإنْ خِلْتُ أنّ المُنتأى عنك واسعُ

فالعينُ المخاطب ، والحَدَثُ الليل .

وتشبيهُ الحَدَث بالعين ، كقوله تعالى : « مَثَلُ الذينَ كَفروا [بربِّهم] أعمالُهم كرمادٍ اشتَدَّتْ به الريحُ »[١٣٥] ، فشبّه الأعمالَ وهي حَدَثٌ بالرماد وهو عين .

وهذه الضروب الأربعة قد انتظمتها كلّها أقسامُ التشبيه المتقدّمة ، وإنّما[١٣٦] مثّلناها هاهنا ليتبعَ القسمة مايستحقّها من التفصيل .

ومن التشبيه بلاغةٌ وحقيقة : فالبلاغة كتشبيه أعمال الكُفّار بالسراب ، والحقيقةُ نحو : هذا الذهبُ كهذا الذهب[١٣٧] .

وتشبيه البلاغة يسمّى تشبيه التقدير ، وهو يحتاجُ (١٤٢) الى تمثيل لكثرته واطّراده ، والثاني كقول امرىء القيس[١٣٨] :

إذا ما الثريّا في السماءِ تعرّضَتْ تعرُّضَ أثناءِ الوشاحِ المُفَصَّلِ

وأصدقُ التشبيه ما إذا عُكِسَ لم ينتقِضْ ولم يبطُلْ ، بل يبقى على حاله .

وأحسنُهُ ماتقابل في البيت الواحد منه تشبيهان لمشبّهين كقول امرىء القيس[١٣٩] :

كأنّ قلوبَ الطير رَطْباً ويابساً لَدَى وَكْرِها العُنّابُ والحَشَفُ البالي

وقول بشّار[١٤٠] :

كأنّ مُثارَ النّقْعِ فوقَ رؤوسِنا وأسيافَنا ليلٌ تهاوَى كواكِبُه

وقوله أيضاً[١٤١] :

من كلِّ مشتهرٍ في كَفِّ مشتهرِ كأنّ غُرّتَهُ والسيفَ نجمانِ

والتشبيهات المفردات الحسان كثيرة جداً ، فمنها قول الشاعر[١٤٢] :

من وَحْشِ وَجْرَةَ مَوْشِيٍّ أكارِعُهُ
طاوي المصيرِ كسيفِ الصَّيْقَلِ الفَرِدِ

وقول ذي الرّمّة[١٤٣] :

وعينٌ كعينِ الرِّئمِ فيها ملاحَةٌ
هي السُّحْرُ أو أدهى التباساً وأعْلَقُ

وقول ابن المعتز[١٤٤] :

قد انقضتْ دولةُ الصيامِ وقد بشّرَ سُقمُ الهلالِ بالعيدِ
(١٤٣) يتلو الثريا كفاغِرٍ شَرِهٍ يفتحُ فاهُ لأكلِ عُنقودِ

والتشبيه تشبيهان : حسن ، وقبيح[١١٥] :

فالحسنُ ما اخرجَ الأغمضَ الى الأظهر فأفادَ بياناً وأخبرَ عن حقيقة الشيء ، وقد ذكرتُ أحكامَهُ وأمثلتَهُ فيما تقدّمَ .

والقبحُ ماكانَ على خلافِ ذلك ، فمنه قولُ بعضهم[١١٦] :

مُذْغُهُ ضِدُّ خَدِّهِ مثلُ ما الـ ... ـعدُ إذا ما اعتبرتَ ضِدُّ الوعيدِ

وهذا عكسُ ماينبغي ان يكون عليه التشبيه ، من قِبَلِ انّه شَبَّهَ الأوضحَ بالأغمض وماتقع عليه الحاسّة بما لاتقعُ عليه الحاسّةُ .

وقول الآخر[١١٧] :

ولهُ غُرَّةٌ كلونِ وِصالٍ ... فوقَها طُرَّةٌ كلَوْنِ صُدودِ

فأتى فيه من القبح بمثل مافي الأول ، وشبَّه محبوباً ، وهو سوادُ الطُرَّةِ ، بمكروهٍ ، وهو الصدودُ . وقبحُهُ من وجه آخر : وهو أنّه شبَّه حقيقةً باستعارة غير حَسَنَةٍ ، وتشبيه حقيقة باستعارةٍ ضعيف ، لاسيّما إذا كانت استعارة قبيحة .

ومن التشبيه مايفوق بعضُهُ بعضاً ، فمن ذلك قول عبد الله بن المُعتزّ[١١٨] :

ماتَرَى المدّ قد أتا ... كَ بماءٍ مُصَنْدَلِ

وقولُ ابي بكر بن دُريد[١١٩] :

وكأنّ دجلةَ في تموجها ... تختالُ بينَ مَطارِفٍ دُكْنِ

(١٤٤) فالتشبيهان مُصيبان ، إلّا أنّ تشبيهَ ابن دُرَيْدٍ احسنُ ومعناهُ ابلغُ وأغربُ .

ومن التشبيه مايرفع المُشبّه ويضع المُشبّه به ، ومنه بالعكس من ذلك ، كأنْ يشبّه إنساناً بكلبٍ فيخسّه أو كلباً بانسانٍ فيرفعه ، وليسَ يعصمُ من ذلك أنْ يقولَ : إنما أردتُ الانتفاع بالحراسة لا التشبيه من جهة الكلبية والانسانية ، ألا ترى انّ قوله تعالى : « كَمَثَلِ الكلبِ إنْ تحملْ عليه يلهث أو تتركْهُ يلهثْ »[١٥٠] ، وقوله : « كمَثَلِ الحِمار يحملُ أسفاراً »[١٥١] .

يتضمنان معنى التخسيس والتنقيص وإنْ كان التشبيه بهما على وَصْفٍ من الأوصاف .

والتشبيهُ يغمضُ إذا أُريدَ تشبيه حالين بشيءٍ واحد على التقدير ، كقول الحَسَنِ البصريّ[١٥٢] : (كأنّك بالدنيا لم تكن ، وكأنّك بالآخرة لم تَزَلْ) . ومعناه : أنّه مثّل حالَه في الآخرة وقد كان في الدنيا بحاله لو لم يكنْ فيها ولم يزل في الآخرة ، ويوضّح ذلك ان يجعله بين شخصين أحدهما لم يزل في الآخرة ، والآخر قد كان في الدنيا ثم انتقل الى الآخرة ، ومثل قولِ الهُذَليّ[١٥٣] :

وإذا مَضَى شيءٌ كأنْ لم يُفْعَلِ

وقول امرىء القيس[١٥٤] :

كأني لم أركَبْ جواداً لِلَذّةٍ ولم أتَبَطّنْ كاعباً ذاتَ خَلْخالِ

قول في البيان[١٥٥] :

(١٤٥) البيان : اختصارُ المعنى للنفس في صيغةٍ توصلُهُ اليها من غير مُهْلةٍ . وإنّما قالوا : من غير مُهلةٍ ، ليفرق بينه وبين الدلالة ، لأنّ الدلالة تحضرُ المعنى للنفس وإنْ أبطأت[١٥٦] .

والبيانُ : الكشفُ عن المعنى حتى تدركه النفس من غير توقّفٍ ، وإنما قيل : من غير توقّفٍ ، لأنّه قد يأتي التعقيد في الكلام الدالّ فلا يستحقّ اسمَ البيان على الاطلاق لموضعِ الحاجة الى التوقف عليه ومُراجعة الفكر فيه .

والبيانُ على طبقات متفاضلة : فأعلاها ماهجم السامعُ على حقيقة المعنى من غير حائلٍ يحول بينه وبين إدراكه في أسرع مدّة . وأوسطها ماأوصل المعنى الى النفس بحائل كالزّجاجة إلاّ أنه بسهولة . وأدوَنُها ما أوصل المعنى الى النفس بحائل كالشفّ الرقيق والغلس اليسير من غير تعقيد .

وقيل[١٥٧] : البيانُ اسمٌ لكلّ شيءٍ كشفَ لك قناعَ المعنى ، وهتكَ الحجبَ دونَ الضمير ، حتى يفضي السامعُ الى حقيقته ، ويهجم على محصوله كائناً ماكانَ ذلك البيانُ ، ومن أيّ جنسٍ كان ذلك الكلام[١٥٨] ، لأنّ مدارَ الأمرِ والغاية التي يجري اليها القائلُ والسامعُ ، إنما هي الفَهم والافهام ، فبأيّ شيءٍ بلغتَ الإفهامَ وأوضحت[١٥٩] المعنى ، فذلكَ هو البيانُ في ذلك الموضع .

وأصنافُ الدلالات على المعاني من لفظٍ وغيره خمسةٌ[١٦٠] : اللفظ ، والاشارة ، والخطُّ ، والعقدُ ، والنَّصْبة : وهي الحال الدالّة التي تقومُ مقامَ تلك الأصناف ولاتُقَصّرُ عنها .

(١٤٦) ولكلٍّ واحدٍ من هذه الخمسة صورة تَخصُّهُ تنفرّدُ بها عن الآخر ، وحِليَةٌ لايشركُهُ فيها سواه ، وهي

WWW.ATTAWEEL.COM

التي تكشفُ أعيانَ المعاني في الجملة ثم حقائقها في التفسير ، وتوضحُ أجناسَها وأقدارها وخاصَّها وعامَّها وطبقاتها في السارّ والضارّ واللغو والبَهْرَج والساقط المخدج .

والاشارة واللفظ شريكان في البيان . والاشارة بالطُّرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح ينوب كثيراً عن اللفظ في أشياء يقصدُ سترها عن بعض اللفظ ، وإخفاؤها عن قومٍ دونَ قومٍ من الجُلاس ، وفيها مرفق ومعونة حاضرة ، ولولاها لم يتفاهم الناس خاصّ الخاصّ وجهلوا هذا البابَ جُملةً ، وخاصّ الخاصّ الدلالة على الشيء بما لايشركه فيه غيرُهُ ، كقولك : مكّة ، وعمان ، وجنّة الخلد ، وجهنّم ، وكقولك : هذا ، مع الاشارة الى الشيء ، فإنّه دلالة تخصّ الشيءَ بعينِهِ ، قال الشاعر[١٦١] في ذلك :

أشارت بطَرْفِ العين خيفة أهلِها ... إشارةَ محزُونٍ ولم تتكلّمِ
فأيقنتُ أنّ الطَّرْفَ قد قال مَرْحَباً ... وأهلاً وسَهْلاً بالحبيبِ المُتَيَّمِ

وقال آخر[١٦٢] :

تَرَى عينُها عيني فتعرفُ وَحْيَها ... وتعرفُ عيني مابه الوحي يرجعُ

وقال الآخر[١٦٣] : (١٤٧)

وللقلب على القلبِ دليلٌ ... حينَ يلقاهُ
وفي العين غِنىً للعينِ ... أنْ تنطقَ أفواهُ

ومبلغ الاشارة أبعدُ من مبلغ الصوت . وبحسن الاشارةِ باليد والرأس والعين والحاجب يتمّ حُسنُ البيان .

وأمّا الخطُّ ففضيلتُهُ ظاهرةٌ ، وقد برهنا عليها فيما تقدّم .
وأمّا العقد فهو تشكيل الأعداد بالأنامل ، وهو صورة الحسابِ كما ان الخطّ صورةُ اللفظ ، والحسابُ وإنْ كان دونَ اللفظِ والخطِّ في الرتبةِ فقد شهد التنزيل بفضله ودلّ على فوائده ، وهو يشتمل على معانٍ كثيرة وفوائد جليلة ، وفي عدم اللفظ ، و[فساد] الخطّ ، والجهل بالعقد فسادُ جُلِّ النّعم ، وفقدانُ جمهور المنافع ، وانتقاص[١٦٤] كلّ ماجعله الله [لنا] قِواماً ومصلحةً ونظاماً .

وأمّا النُّصْبَةُ فهي الحالُ الدّالةُ بغير عبارةٍ ، الناطقةُ بغير لفظٍ ، المشيرةُ بغير يدٍ ولاطرفٍ . وهي ظاهرةٌ في خلق السموات والأرض ، وكلّ صامتٍ وناطقٍ ، وجمادٍ ونامٍ ، ومقيم وظاعِنٍ ، وزائدٍ وناقصٍ ، فالدلالةُ التي في المَواتِ الجامدة كالدلالة التي في الحيوانات الناطقة ، فالصامتُ ناطقٌ بما فيه من الدلالة ، والأعجمُ مُغْربٌ بما فيه من البُرهان ، ومتى دلَّ الشيءُ على معنىً فقد أخبرَ عنه وإنْ كانَ صامتاً وأشارَ اليه (١٤٨) وإنْ كانَ ساكناً ، وهذا القول شائعٌ في جميع اللغةِ ، قالَ نُصَيْبٌ[١٦٥] :

فعاجُوا فأثْنَوْا بالذي أنتَ أهلُهُ
ولو سكتوا أثْنَتْ عليكَ الحقائبُ

وقال أبو العالية[١٦٦] :

ومعشرٍ صيدٍ ذَوي نُجْلَه
ترى عليهم للندى أدَلَّه

وقد تقدّم استشهادنا على مثل هذا الموضع بقول الحُكماء :
(كلُّ صامتٍ ناطقٌ) . وقُلنا : إنّ الصامتَ وإنْ كان لايعربُ عن حالِهِ فإنّ في شاهده من الدلائل عليه ماينوبُ منابَ نُطْقِهِ لو نَطَقَ فهو لذلك كالناطقِ .

والكلامُ على ضَرْبَيْنْ :
ضَرْبٌ لايُنسبُ الى البيان وإنْ دلّ على المعنى ، كقولِ الفرزدق[١٦٧] :

ومامثلُهُ في الناس إلاّ مُمَلَّكاً أبو أُمِّهِ حَيٌّ أبوه يُقاربُهْ

وضَرْبٌ يُنسبُ الى البيان ، وهو كقوله أيضاً[١٦٨] :

تصَرَّمَ عني ودُّ بكربنِ وائلٍ وماكان عني ودُّهُم يتصرَّمُ

فوارصُ تأتيني وتحتقرونها وقد يملأ القَطْرُ الاناءَ فيُفعمُ

وكقولِ جرير[١٦٩] :

أدارَ الجميعِ الصالحين بذي السِّدْرِ أبيني لنا إنّ التحيُّةَ عن عُفْرِ
فلا تُوبِسوا بيني وبينكم الثرى فإنّ الذي بيني وبينكم مُثْري

(١٤٩) فهذه الأبياتُ تدلّ وفيها بيانٌ ، والبيتُ الأول يدلُّ ولابيانَ فيه .

وأسبابُ الأشكال التي تخرج الكلامَ عن البيان ثلاثةٌ :

التعبيرُ عن الأغلب ، وسلوكُ الطريق الأبعد ، واستعمالُ المشترك من اللفظ .

وكلُّ أسباب الاشكال قد انتظمها بيتُ الفرزدق الأول ، لأنّه قَدّمَ وأخّر ، واستعمل مايقلُّ استعمالهُ ، فعبّرَ الكلامُ عن الأغلب ، ولو أتى به على حقِّهِ لكانَ : ومامثلُهُ في الناس حَيٌّ يُقارِبُهُ إلاّ مملّك أبو أمّه أبوه .

وأمّا سلوكُ الطريق الأبعد فإنّ أبا هذا المملّك أبو هذا الممدوح ، فدلّ على أنّه خالُهُ بهذا اللفظ البعيد .
وأمّا استعمالُ المشترك من اللفظ فقوله : حَيٌّ ، لانّ هذه اللفظة مشتركة بين حيٍّ من الحياة وحيّ من أحياء العرب .

ويُحتاجُ في البيان الى ثلاثة أشياء : النشاط ، والتمكّن ، والتخيّر .
فالنشاط له أوقاتٌ تتعيّنُ مراعاتها وأسبابٌ يجبُ تصدّيها ، والحذرُ مما يذهبُها ويقضي بالفتور ووقوف النفس عنه .

وأمّا التمكّنُ فإنّه ينبغي أنْ يتلطّفَ في تمكين المعنى في النفس ، في الفِكر فيه ومحاولة التصوُّرِ له وتشبيهه بما قَرُبَ ، منه من أبينِ الأشياء ، فإنّ تمثيلهُ يزيد في وضوحه .

وأمّا التخيّرُ فينبغي أنْ يتخيّرَ العبارةَ بعد تمكّن المعنى في النفس ، ويقصد الى أخصر مايدلُّ عليه منها .
والتنزيلُ كلُّهُ في غايةَ البيان ، والذي نذكرُه منه باعث على التدبُّرِ والتأمُّل :

قال الله تعالى : « وضَرَبَ لنا مثلاً (١٥٠) ونسيَ خَلْقَهُ قال مَنْ يُحيي العظامَ وهي رميمٌ قُل يُحييها الذي أنشاها أوّل مرّةٍ وهو بكلِّ خلقٍ عليم »[١٧٠] .
وقال : « الإخلاءُ يومئذٍ بعضُهم لبعضٍ عَدُوٌّ إلاّ المتقين »[١٧١] .
وقال : « ولو رُدُّوا لعادوا لِما نُهوا عنه »[١٧٢] .

ومن البَيِّنِ في كلام البشر قول سيِّدهم محمد ، صلى الله عليه وسلم ، في خُطبة له : (فليأخذ العبدُ من نفسِهِ لنفسِهِ ، ومن دُنياهُ لآخرتِهِ ، ومن الشبيبةِ قبلَ الكِبَر ، ومن الحياةِ قبلِ الموتِ ، فوالذي نفسُ محمدٍ بيده ، مابعدَ الموتِ من مُسْتَعْتَبٍ ، ولابعدَ الدنيا [من] دارٍ ، إلاّ الجنّة أو النّار)[١٧٣] .

وقول الشاعر[١٧٤] :

يـاأيُـهـا الـمُـتَـحَـلِّي غـيـر شـيـمـتِـهِ
إنّ الـتـخـلُّقَ يـأتي دُونَـهُ الخُـلُقُ
فـلا يُـواتـيـكَ فـيـمـا نـابَ مـن حَـدَثٍ
إلّا أخـو ثِـقَـةٍ فـانـظرْ بمـن تـثـقُ

وقول جرير[١٧٥] :

تـراضَـتْ مـن تـكـرُّمِـهـا قُـرَيْشٌ بَـردُ الخـيـلِ دامـيـةَ الـكُـلُومِ

وقول الحُطَيئة[١٧٦] :

وذاك فـتىً إنْ تـأتِـهِ في صـنـيـعـةٍ الى مـالِـهِ لاتـأتِـهِ بـشَـفِـيـعِ

وقول زُهير[١٧٧] :

عـلى مُـكْـثِـريهم حَقُّ مَنْ يعتـريهمُ وعـنـد المُقِـلّينَ الـسـمـاحـةُ والبَـذْلُ

وقول الأعشى[١٧٨] : (١٥١) . .

ولـكـنْ أرى الـدهـرَ الـذي هـو خـاتِـرٌ
إذا أصـلَحَـتْ كـفّـايَ عـادَ فـأفْـسَـدا
شـبـابٌ وشَـيْـبٌ وافـتـقـارٌ وثـروةٌ
فـللهِ هـذا الـدهـر كـيـفَ تـرَدّدا

وقول المُزّار[١٧٩] :

إذا شِـئـتَ يـومـاً أنْ تـسـيـدَ عَـشـيـرةً
فـبـالحـلم شُـدْ لا بـالـلامـةِ والـشَّـتْـمِ
فـلِلْحِـلْمُ خـيـرٌ فـاعـلمـنْ مـغَـبّـةً
مـن الجـهـلِ إلّا أنْ تَـشَـمَّسَ مِـنْ ظُـلْمِ

وقول جميل[١٨٠] :

لاتـصـرمـي يـاجُـمـل حـبـلي فـإنّـني
ورودٌ عـلى سـكّ الأمـورِ صَـدورُ
وإنّي عـلى صـفـحِ الـدمـوع الـتي تَـرى
لجـلـدٌ عـلى بَـيْنِ الحـبـيـبِ . صَـبُـورُ

وإنّي بنارٍ أوقدتها بذي الغضَى
على مابعيني من قذىً لبصيرُ
أضاءت لنا وحشيّة غيرَ أنّها
مع الإنس ترعى مارَعَوْا وتسيرُ

وهكذا كافٍ في معرفة أحكامِ البيان ، واحتذاء سَمْتِ الكلام البيِّن .

الهوامش

(١) ينظر في الحقيقة والمجاز : المحصول ١/١/ ٣٩٥ ـ ٤٨٧ . الكوكب الدري ٤٨٥ . شرح الكوكب المنير ١/ ١٤٦ ـ ١٩٨ .
وينظر : معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ٢/ ٤٥٣ و ٣/ ١٩٣ ومابليه من مصادر .

(٢) في الأصل : العادل

(٣) يوسف ٨٢ .

(٤) الفرعة ٩ .

(٥) الاحزاب ٦ .

(٦) الرحمن ٣١ .

(٧) ديوانه ١٨ . وجاء في هامش الأصل : (وفي الصلب ثلاث لغات مشهورة : بضمّ الصاد وسكون اللام ، وبضمهما . وبفتحهما ، ولغة غريبة وهي الصلب) . واشار الى الزوزني (ينظر : شرح المعلقات للزوزني : ٤٦) . وجاء هامش آخر في شرح البيت الثالث عن الزوزني : (والمعنى : قلت لليل لما فرط طوله وناءت اوائله وازدادت اواخره تطاولاً . وطول الليل ينبيء عن مقاساة الاحزان والشدائد والسهر المتولد منها ، لان المغموم يستطيل ليله والمسرور يستقصره) . (الزوزني ٤٧) .

(٨) شعره : ١/٢٠٣ .

(٩) المفضليات ٤١٣ وشرح المفضليات ٨٣٧ ورواية الصدر فيهما :
وقفت بها أصْلاً مثَبِّنُ

(١٠) المثبِّد بن حرملة في شرح ابيات سيبويه ١/٣١٧ . وينظر : فرحة الاديب ١٧٩ .

(١١) ديوانه ٢١٧ .

(١٢) الكهف ٧٧ .

(١٣) عمر بن ابي ربيعة ، ديوانه ٢٩١ . وفيه : بسُعدى ... يهمّ .

(١٤) بلا عزو في الاضداد ١٧٢ .

(١٥) الكهف ٧٧ .

(١٦) النحل ٢٦ .

(١٧) الاعراف ٥٤ .

(١٨) البقرة ٢٩ .

(١٩) في الاصل : فهو .

(٢٠) آل عمران ١٥٩ .

(٢١) العنكبوت ٣٣ .

(٢٢) الأعراف ١٥٤ . وفي الاصل : والذين . وما اثبتناه من المصحف الشريف .

(٢٣) الذاريات ٥٧ .

(٢٤) النور ٦٣ .

(٢٥) الاحقاف ٢٦ .

(٢٦) المؤمنون ٤٠ .

(٢٧) الاسراء ١١٠ .

(٢٨) الشورى ١١ .

(٢٩) يوسف ٨٢ .

(٣٠) اللسان (وطا ، طرق) وفيه : يطؤهم .

(٣١) آل عمران ٣٨ .

(٣٢) اللسان (سكت) .

(٣٣) في الأصل : النفس .

(٣٤) محمد ٢١ .

(٣٥) البقرة ١٦ .

(٣٦) ديوانه ١/ ٣٣٩ .

(٣٧) شعراء مقلون ٥٢ .

(٣٨) ينظر في الايجاز : النكت في اعجاز القرآن ٧٦ ، الصناعتين ، ١٧٩ ، العمدة ١/ ٢٥٠ ، نهاية الايجاز ٣٤٧ ، تحرير التحبير ، ٤٥٩ ، جوهر الكنز ٢٦٨ ، الايضاح ١٨٢ ، البيان للطيبي ، ١٤٥ ، الطراز ٢/ ٨٨ ، الخزانة للحموي ، ٣٦٤ .

(٣٩) في الأصل : عند .

(٤٠) النور ١ .

(٤١) محمد ٢١ .

(٤٢) الأعشى ، ديوانه ، ٢٣٣ .

(٤٣) الرعد ٣١ .

(٤٤) الزمر ٧٣ .

(٤٥) البقرة ٩٣ .

(٤٦) البقرة ١٧٧ .

(٤٧) يوسف ٨٢ .

(٤٨) المتنخل ، ديوان الهذليين ٢/ ٢١ ، ومابين القوسين منه . والخرس الصراصرة : يريد أصجم من نبط الشام يقال لهم الصراصرة ، والقطاط : الجماد .

(٤٩) الواقعة ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ .

(٥٠) الراعي النميري ، ديوانه ، ٢٦٩ .

(٥١) السجدة ١٢ .

(٥٢) ديوانه ٨٩٧ وفيه : وهو جانح ، والخذا : الاسترخاء .

(٥٣) الأعراف ٣٢ .

(٥٤) فاطر ٨ .

(٥٥) الشنفري ، شعره : ٣٦ ، وروايته .

لاتقبروني إنّ قبري . . . . . أبشري

(٥٦) ق ١ ـ ٣ . ومابين القوسين من المصحف الشريف لانّ السياق يقتضيه .

(٥٧) يوسف ٥٨ .

(٥٨) امرؤ القيس ، ديوانه ، ٣٢ ، وعجزه : ولو قطّعوا رأسي لديك وأوصالي .

(٥٩) ص ٣٢ .

(٦٠) ديوانه ٣١٦ .

(٦١) المطففين ٣ ، وفي الاصل : أو وزنوهم ، وأثبتنا رسم المصحف .

(٦٢) البقرة ٧٩ .

(٦٣) المنافقون ٤ .

(٦٤) النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/ ٤٤٣ .

(٦٥) مسند الشهاب ١/ ١٤١ ، الدرر المنتثرة ١٧٧ .

(٦٦) البيان والتبيين ١/ ٧٧ .

(٦٧) نهج البلاغة ٤٩٧ .

(٦٨) عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب ، صحابي ، ت ٦٨ هـ . (أسد الغابة ، ٣/٢٩٠ ، الإصابة ٤/١٤١ .

(٦٩) ديوانه ٩١ ، وماين قوسين منه .

(٧٠) ديوانه ٥٣ .

(٧١) ديوانه ٨٢٣ .

(٧٢) شعره ٢٢ .

(٧٣) ديوانه ١٩ وهو : وقد أختبي والطيرُ في وُكُناتها بمنجردٍ قَيْدِ الأوابدِ هيكلِ

(٧٤) في الأصل : بالنسبة ، وهو خطأ .

(٧٥) في الأصل : النكتة ، وهو خطأ .

(٧٦) ينظر في الاستعارة : البديع ١٩ ، الصناعتين ٢٧٤ ، العمدة ١/٢٦٨ ، أسرار البلاغة ٢٩ ، البديع في نقد الشعر ٤١ ، الرسالة السجدية ١١٥ ، كفاية الطالب ١٥٨ ، نضرة الاغريض ١٣٤ ، المنزع البديع ٢٣٥ ، الأقصى القريب ٤٠ . .

(٧٧) في الأصل : يكون .

(٧٨) الفرقان ٢٣ .

(٧٩) الحجر ٩٤ .

(٨٠) في الأصل : حقيقة .

(٨١) الاسراء ٢٤ .

(٨٢) مريم ٤ .

(٨٣) الذاريات ٤١ .

(٨٤) ديوانه ١/٢٢ . وينظر : أخبار أبي تمام ٣٣ ، والموازنة ١ / ٢٧٧ .

(٨٥) البقرة ١٩٤ .

(٨٦) ديوانه ـ ١/٦٩ ، وفيه : تسعون .

(٨٧) بعض المولدين في العمدة ١/٢٧٢ ، وروايته : اسفري لي النقاب . . . .

(٨٨) ديوانه ١٠٥ ، وفيه : وخفّ . . . الربيع . وفي الأصل : المورق .

(٨٩) معاوية بن مالك (معوِّد الحكماء) في المفضليات ٣٥٩ ، وشرحها ٧٠٣ . والرواية فيها : اذا نزل السحاب . . . رعيناه .

(٩٠) القلم ١٦ ـ وينظر : تأويل مشكل القرآن ١٥٦ ، وتفسير القرطبي ١٨ /٢٣٧ .

(٩١) ديوانه ٩٤٠ .

(٩٢) الحاقة ١١ ، ورسمت في الأصل : طغى .

(٩٣) الحاقة ٦ .

(٩٤) الملك ٧ .

(٩٥) الأعراف ١٥٤ .

(٩٦) ابراهيم ٤٣ .

(٩٧) النساء ٤٩ .

(٩٨) النساء ١٢٤ .

(٩٩) القلم ٤٢ .

(١٠٠) فاطر ١٣ .

(١٠١) الكهف ٢١ .

(١٠٢) الشرح ٢ .

(١٠٣) البقرة ٢٣٥ ، والزيادة من المصحف الشريف .

(١٠٤) البقرة ٢٢٣ .

(١٠٥) البقرة ، ١٨٧ .

(١٠٦) الأمثال والحكم ١٣١ ، مسند الشهاب ١/٦٦ ، كشف الخفاء ٢/٤١٨ .

(١٠٧) الأمثال والحكم ١٣١ ، مسند الشهاب ١/٦٦ ، المقاصد الحسنة ٢٤٩ . وفي الأصل : شملة .

(١٠٨) الأدب المفرد ٩٣ وفيه : المؤمن مرآة أخيه ، وينظر : مسند الشهاب ١/١٠٥ ، والمقاصد الحسنة ٤٣٩ ، وفيها : المؤمن مرآة المؤمن .

(١٠٩) الصناعين ، ٢٨٤ .

(١١٠) الحجاج بن يوسف الثقفي ، ت ٩٥ هـ ، (الأوائل ٢/٦٠ ، وفيات الأعيان ، ٢/٢٩) .

(١١١) ديوانه ، ١٨ .

(١١٢) ديوانه ، ٥٧ ، وفي الأصل : بعميم البيت ، وهو تصحيف .

(١١٣) نقل المؤلف هذه الأقوال من الصناعين ، ٢٨٣ .

(١١٤) ديوانه ، ٦٨٥ ، وفيه : اعتسفتها . والدوية : المستوي من الأرض .

(١١٥) المؤتلف والمختلف ، ١٤٧ ، لمنظور بن حبة ، قال : ويروي لدكين .

(١١٦) ديوانه ، ١١ .

(١١٧) ديوانه ، ١٠ .

(١١٨) ديوان الهذليين ، ١/٣ .

(١١٩) أخل به ديوانه . وهو للذي الرمة في ديوانه ١٩١ .

(١٢٠) أخل به ديوانه . وهو للذي الرمة أيضاً في ديوانه ٥٦١ ، وفيه : ذوى العود والثوى .

(١٢١) شعره : ٢/١٢٦ .

(١٢٢) ديوانه ٩٢ وروايته : والدن منطرح جسماً بلا روح .

(١٢٣) ينظر في التشبيه : نقد الشعر ١٠٨ ، الصناعتين ، ٢٤٥ ، العمدة ١/٢٨٦ ، كفاية الطالب ١٦٤ ، نضرة الاغريض ١٥٠ ، المتزع البديع ٢٢٠ ، الروض المريع في صناعة البديع ١٠٣ ، جوهر الكنز ٦٠ ، الايضاح ٢١٣ ، التبيان للطيبي ١٨٠ ، الخزانة للحموي ١٧٣ .

(١٢٤) الرعد ١٤ .

(١٢٥) الرحمن ١٤ .

(١٢٦) الجمعة ٥ .

(١٢٧) ديوانه ٢٩٩ .

(١٢٨) ديوانه ٣٠٤ . وفيه ؛ خفّ مع الجنوب . . .

(١٢٩) ديوانه ٩٩٠ .

(١٣٠) ديوانه ٣٣ .

(١٣١) نقل المؤلف هذه الوجوه من النكت ٨١ ، وهي برمتها في الصناعتين أيضاً ٢٤٦ .

(١٣٢) ديوانه ٣١ .

(١٣٣) بلاغرو في البديع ١٢٧ .

(١٣٤) ديوانه ٥٢ .

(١٣٥) ابراهيم ١٨ ، والزيادة من المصحف الشريف .

(١٣٦) مكررة في الأصل .

(١٣٧) وهو قول الرماني في النكت ٨١ .

(١٣٨) ديوانه ١٤ .

(١٣٩) ديوانه ٣٨ .

(١٤٠) ديوانه ١/٣١٨ .

(١٤١) أخل به ديوانه . وهو له في العمدة ١/٢٩١ .
(١٤٢) النابغة الذبياني ، ديوانه ٧ .
(١٤٣) ديوانه ٤٦٥ .
(١٤٤) شعره : ٢/١٠٠ .
(١٤٥) وهو قول الرماني فيما نقل ابن رشيق في العمدة ١/٢٨٧ .
(١٤٦) بلا عزو في العمدة ١/٢٨٧ .
(١٤٧) بلا عزو في العمدة ١/٢٨٧ .
(١٤٨) شعره : ٢/١٩٩ .
(١٤٩) أخل به ديوانه بطبعته .
(١٥٠) الأعراف ١٧٦ .
(١٥١) الجمعة ٦ .
(١٥٢) تابعي ، ت ١١٠ هـ . (وفيات الأعيان ، ٢/٦٩ ، تذكرة الحفاظ ، ٧١) .
(١٥٣) أبو كبير ، ديوان الهذليين ٢/١٠٠ ، وصدره : فإذا وذلك ليسَ إلاّ حينَهُ
(١٥٤) ديوانه ٣٥ .
(١٥٥) ينظر في البيان : البيان والتبيين ١/٧٦ ، النكت ١٠٦ ، العمدة ١/٢٥٤ ، المنزع البديع ٤١٤ .
(١٥٦) في الأصل : أبطت .
(١٥٧) القول للجاحظ في البيان والتبيين ١/٧٦ .
(١٥٨) في البيان والتبيين : كان الدليل .
(١٥٩) في البيان والتبيين : وأوضحت عن المعنى .
(١٦٠) الكلام وشواهده للجاحظ في البيان والتبيين ١/٧٦ - ٨٣ ، وماين القوسين منه .
(١٦١) عمر بن أبي ربيعة ، ديوانه ، ٢٠٤ .
(١٦٢) بلا عزو في البيان والتبيين ١/٧٨ .
(١٦٣) بلا عزو في البيان والتبيين ١/٧٨ . وفيه : غنى للمرء .
(١٦٤) في البيان والتبيين : اختلال .
(١٦٥) شعره : ٥٩ .
(١٦٦) بلا عزو في البيان والتبيين ١/٧٨ .
(١٦٧) ديوانه : ١٠٨ .
(١٦٨) ديوانه ٧٥٦ ، وفي الاصل : . . . ذكرود بن وائل وماكان مني . . .
(١٦٩) ديوانه ٤١٨ ، ٤٢١ . وفيه : إنّ البلية عن عفر .
(١٧٠) يس ٧٨ - ٧٩ .
(١٧١) الزخرف ٦٧ .
(١٧٢) الأنعام ٢٨ .
(١٧٣) البيان والتبيين ١/٣٠٢ ، والزيادة منه . وفي الأصل : والذي نفس . . .
(١٧٤) سالم بن وابصة في النوادر في اللغة ٤٨٨ ، والمؤتلف والمختلف ٣٠٤ ، وفيهما : ولايواسيك ، وينظر : شرح أبيات مغني اللبيب ٣/٢٤٣ ، وشرح الشواهد المغني ٤١٩ .
(١٧٥) ديوانه ٢١٩ .
(١٧٦) ديوانه ١٨٤ .
(١٧٧) ديوانه ١١٤ .
(١٧٨) ديوانه ١٣٥ .
(١٧٩) شعراء أمويون ٢/٤٨٢ .
(١٨٠) أخلّ بها ديوانه .